جامعة البعث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

السنة الأولى
الفصل الثاني
العام الدراسي ٢٠١٩ ـ ٢٠٢٠

(المكتبة العربية ـ مصادر التراث) المحاضرة الرابعة

ـ تذكير:

أوّلاً- التأليف في الأدب:

١ ـ مجموعات الشعر العربي.

٢ ـ كتب تراجم الأدباء.

٣ ـ كتب الأدب.

.....

ـ نتابع:

ـ كتب الأدب: وتُعرف بـ (كتب الثقافة الأدبيّة العامّة).

يقول ابن خلدون في مقدّمته:

(الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كلّ عِلم بِطَرف).

الأدب ـ بحسب هذا المفهوم ـ ثقافة أدبيّة عامّة، ترمي إلى تكوين مَلَكَة البيان لدى صاحبها، وجعله قادراً على إجادة التعبير عن أفكاره شعراً ونثراً.

والأديب ـ بحسب هذا المفهوم ـ إنّما هو الرجل المثقّف الآخذ من كلّ عِلم بطرف، والقادر على التعبير عن أفكاره بالكلام الجيّد المنظوم أو المنثور.

ـ ولعلّ أوضَح ما يميز كتب الأدب صفتان:

١ ـ تنوُّع الموضوعات؛ فكتاب الأدب لا يقتصر على فنّ واحد، بل يطرق شتى الفنون ويتلوّن بمختلف الموضوعات.

٢ ـ الاستطراد المستمر؛ فنرى المؤلِّف ينتقل في كتابه من قصّة إلى حديث، ومن مقطوعة شعرية إلى حكمة أو خطبة ...

ـ إنّ هذه الفوضى في كتب الأدب مُتعَمَّدة ومقصودة لذاتها، وأكثر مؤلِّفي كتب الأدب يُصرِّحون في مصنّفاتهم أنّهم قصدوا إلى تنوّع الأنغام لنفي السأم (الملل) عن المستمع. ذلك أنّ هؤلاء المُصنّفين لم يكونوا يرمون من تأليف كتبهم هذه إلى إكساب القارئ ثقافة عميقة في موضوع معيّن، بل إلى جعْله يأخذ من كلّ عِلم بطرف؛ أي إلى تثقيفه ثقافة أدبية وفكرية عامّة.

.....

ـ سنتعرّف إلى أبرز كتب الأدب (كتب الثقافة الأدبية العامة) في التراث العربي:

ـ كتاب (الحيوان) للجاحظ (ت٢٥٥ هـ) :

١ ـ سبب تأليفه:

ـ يُنبِّه الجاحظ في أكثر من موضع من كتابه إلى ضرورة الاتّعاظ من دقائق الخَلْق، والنظر في حكمة الله من خَلْقها، وربّما كان هذا الغرض الرئيس من تأليف الكتاب.

ـ والقرآن الكريم ـ الذي سُمّيت بعض سوره بأسماء بعض الحيوانات ـ كثيراً ما يتّخذ من الحيوانات أمثلة على حكمة الله وبديع قدرته.

ـ يُضاف إلى هذا أنّ الجاحظ ـ كغيره من مُتكلِّمي عصره ـ كان مُطّلعاً على ما نُقِل إلى العربية من آثار اليونان في العِلم والفلسفة، ومنها كتاب (الحيوان) لأرسطو.

ـ هذه الأمور كلّها شجّعت الجاحظ على تأليف كتاب (الحيوان) الذي هو الأوّل من نوعه في اللغة العربية؛ إذ يُعدّ من أغنى كتب الأدب بالأخبار والأشعار والخطب والأقاصيص والنوادر، ومن أحفَلَها بالمعلومات الفلسفية والطبية والتاريخية.

ـ وقد تَعَمّد الجاحظ ـ في كتابه ـ اتّباع الطريقة الأدبية، وأشار إلى قصده هذا في أكثر من موضع منه.

٢ ـ مصادر تأليفه:

ـ إنّ مَن يقرأ كتاب (الحيوان) يلمس بنفسه وفرة الكتب التي استعان بها الجاحظ من أجل جَمْع المادّة الغزيرة التي نجدها في الكتاب.

ـ تُعدّ الدواوين ومختلف المجموعات الشعرية من أبرز مصادر الجاحظ؛ وذلك نظراً للشعر الكثير الذي انتشر بغزارة في الكتاب، وهو شعر قيل في مختلف الموضوعات، ولاسيما في وصف الحيوانات من إبل وخيل وظباء وطيور جارحة وغيرها.

ـ ويلي الدواوين والمجموعات الشعريّة ما صُنِّف من الكتب في القرآن الكريم والحديث الشريف والكلام والأخبار، ثم ما نُقِل إلى العربية من آداب الفرس وفلسفة اليونان، وفي طليعة ذلك كلّه كتاب (الحيوان) لأرسطو.

٣ ـ مضمون الكتاب:

ـ لم يقصر الجاحظ كلامه في كتابه على الحيوان، فقد ضمّ المعارف الطبيعيّة، والمسائل الفلسفية، كما تحدّث عن سياسة الأقوام والأفراد، وفيه مسائل جغرافية، وتاريخية، وطبيّة، وفقهية، إضافة إلى ما فيه من الأشعار والأمثال والنوادر، وهذا كلّه يجعل من الكتاب مصدراً مهمّاً للدراسات الأدبية والاجتماعية والعلمية.

.....

ـ كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ (ت٢٥٥ هـ) :

١ ـ مضمون الكتاب:

ـ نجد في هذا الكتاب مباحث كثيرة، عظيمة القيمة، دقيقة الدلالة، تتّصل بمفهومات البيان والفصاحة والبلاغة.

ـ يتناول الجاحظ بحديثه الألفاظ فيتكلّم على شروط فصاحتها، ومخارج حروفها، وعجز بعض الناس عن النطق بها على الوجه الصحيح، وما يعتريها من لكنة على ألسنة الأعاجم أو مُحاوريهم من العرب، وأسباب اختلاف اللهجات وغيرها من القضايا.

ـ ويخوض كذلك في حديث البيان والبلاغة؛ فيبحث في الأفكار ووسائل التعبير عنها، وعلاقة المتكلم ببيانه، وأثر البيئة والصناعة فيه، ووجوب التناسب بين اللفظ والمعنى، ومفهوم البلاغة عند الأمم المختلفة وبلاغة الكُتّاب والزّهاد...

ـ ويتناول الشعر والشعراء، والخطابة والخطباء بأحاديث كثيرة في مواضع مختلفة من الكتاب؛ فيتحدّث عن صفات الشعر الجيّد، ومذاهب الشعراء في تنقيحه، وأثره الاجتماعي، وصعوبة الجمع بين بلاغة الشعر وبلاغة القلم، كما تحدّث عن الشعراء وأزيائهم وطبقاتهم واختلافهم في قوّة الطبع ودقّة الصنعة.

ـ ويذكر مقوّمات الخطابة وموضوعاتها الأساسية، واختلاف مكانتها باختلاف العصور والأمم وأثرها في النفوس، وأزياء الخطباء وعاداتهم في خطبهم، وغير ذلك من المباحث التي هي من صميم البلاغة والنقد والأدب.

٢ ـ منهج الكتاب:

ـ كان منهج الجاحظ في كتابه هذا كمنهجه في كتاب (الحيوان) من ناحية الاستطراد، والتنقّل في الباب نفسه، أو من باب إلى آخر؛ من جدّ إلى هزل، ومن خبر إلى شعر، ومن خطبة إلى موعظة أو قصّة أو نادرة، وعدم الاستمرار طويلاً في موضوع بعينه.

.....

ـ كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦ هـ) :

١ ـ سبب التأليف:

ـ بيّن ابن قتيبة في مقدّمة كتابه أنّه أراد ـ من مُصنّفه هذا ـ تزويد الكاتب الناشئ أو القارئ عموماً بما يحتاج إليه في حديثه وكتابته من ثقافة أدبية واسعة.

٢ ـ مضمون الكتاب:

ـ الكتاب غزير المادة، متنوّع الألوان كغيره من الكتب الأدبية. وقد جمع مادّة كتابه من جلسائه، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، ومن بلاغات الكُتّاب في فصول كتبهم حتى تجمّع لديه قدر كبير، ثم شرع في تقسيم هذه المواد أبواباً.

ـ يتألّف الكتاب من عشرة أبواب، هي:

(السلطان)، و(الحرب)، و(السؤدد)، و(الطبائع والأخلاق)، و(العلم)، و(الزهد)، و(الإخوان)، و(الحوائج)، و(الطعام)، و(النساء).

ملاحظة: السؤدد: الشرف والمجد.

٣ ـ منهج الكتاب:

ـ يمتاز كتاب (عيون الأخبار) من الكتب التي ذكرناها قبله بكونه يُمثّل خطوة في التنظيم نفتقدها في تلك الكتب.

ـ وقلّما نجد لابن قتيبة في أحد هذه الأبواب فكرة خاصّة، أو بحثاً شخصيّاً، إذ ليس الباب سوى مجموعة من الأخبار المنقولة المتصلة بالمعنى الذي بُني عليه، مع جملة من النوادر والأشعار المُشاكلة لتلك الأخبار. وقد اعتمد منهج الاستطراد جرياً على عادة المؤلّفين قبله، ولكن ضمن الباب نفسه.

ـ وقد نال هذا الكتاب شهرة كبيرة في القرن الثالث الهجري، والعصور الذي تلته، وهذه الشهرة هي التي حملت ابن عبد ربه (ت ٣٣٨ هـ) ـ الأديب الأندلسي ـ أن يؤلِّف على نهجه، فألّف كتاب (العقد الفريد).

.....

ـ كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربّه (ت٣٣٨ هـ) :

١ ـ سبب التأليف:

ـ ربّما أُعجب ابن عبد ربّه بكتاب (عيون الأخبار) عندما قرأه، فأراد أن يصنع مثله، وأن يؤلّف لأهل الأندلس كتاباً أوفى بالحاجة، وأحسن تنظيماً وتبويباً.

ـ ويُخيّل إلينا أنّ ابن عبد ربّه ـ وإن لم يُصرِّح باسم ابن قتيبة ـ فقد كان يعنيه أكثر من سواه حين أشار في مقدمة كتابه إلى مؤلِّفي كتب الأدب قبله، وإلى رغبته في أن كتابه أكمل من كتبهم.

٢ ـ مضمون الكتاب:

ـ كانت طريقة ابن عبد ربه مشابهة لطريقة ابن قتيبة من ناحية جمع الأخبار، ثم تصنيفها في أبواب بحسب معانيها العامّة.

ـ صنّف ابن عبد ربه كتابه في خمسة وعشرين باباً، بينها وبين أبواب (عيون الأخبار) العشرة شبه كبير، فهناك سبعة أبواب مشتركة بين الكتابين، هي:

(السلطان)، و(الحروب)، و(العلم والأدب)، و(المواعظ والزهد)، و(الطبائع)، و(الطعام)، و(النساء).

ـ كما أنّ عدداً آخر من أبواب كتاب (العقد الفريد) نجده مُفرَّقاً في تضاعيف بعض أبواب كتاب (عيون الأخبار).

ـ وكتاب (العقد الفريد) وإن ظهر في الأندلس، فإنّه لا يختلف في ألوانه الثقافية عن كتب الأدب المشرقية.

٣ ـ منهج الكتاب:

ـ إنّ أبواب الكتاب تُؤلِّف بمجموعها عِقداً مُتناظراً تتوسّطه (الواسطة)، وتتقابل فيه الجواهر الكريمة من الطرفين؛ فمن ابتكارات ابن عبد ربه في كتابه ـ وهو ابتكار يتّفق مع ذوق الأندلسيين وعنايتهم بالزينة والزخرف ـ أنّه سمّى كلّ باب من الأبواب الاثني عشر الأولى في كتابه باسم جوهرة من الجواهر الكريمة:

(كتاب اللؤلؤة في السلطان)، و(كتاب الفريدة في الحروب)، و(كتاب الزبرجدة في الأصفاد)، و(كتاب الجمانة في الوفود) .... الخ.

ـ وسمّى الكتاب الثالث عشر باسم (الواسطة)؛ وهي الحبّة الوسطى في العقد. وسمّى الأبواب الباقية، من مثل: الباب الرابع عشر حتى الباب الخامس والعشرين باسم الجواهر نفسها مكرّرة، فيقول:

(كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والمُلَح)، و(كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب)، و(كتاب الزبرجدة الثانية في طبائع الإنسان وسائر الحيوان)، و(كتاب الجمانة الثانية في المتنبئين والبخلاء والطفيليين) ... الخ.